واضطر هرتزل غداة هذا الاتصال ان يبرم اتفاقا مع احباء صهيون يقيد بموجبه نفسه بالعمل لفلسطين فقط مقابل تأييد الحركة له . ومن الواضح طبعا ان هذا الاتفاق ينطوي على مساومة برغماتيـــة . وحدث ان نصح الزعيم الصهيوني اليهود بضرورة « اتبـــاع سياسات حسب ما تمليه الظروف »(٢٧) . ولربما كانت هذه النصيحة من النصائح النادرة في العالم التي جاد بها ناصح وسار عليها بالفعل في عين الوقت . لقد كان هرتزل يحاول عندئذ التملص من تعهده لاحباء صهيون باللجوء الى بهلوانيات سياسية جديدة أملتهـــا مقتضيات الساعة . ومن الخلافات الرئيسية التي حصلت بينه وبين احباء صهيون واتباع مدرسة الصهيونية العملية (امثال وايزمان) هـــو اصراره على رفض وايقـــاف كافة النشاطات المرحلية والرامية الى بناء الوطن القومي بشكل تدريجي عضوي . فما الذي حمله على قبول فكرة (الملجأ الليلي) وفكرة المرحلة التطورية التدرجية ليوغندة ؟

الاحتمال الاكبر هو ان صحته التي اخذت بالتدهور السريع اثرت على عملياته الذهنية وقراراته السياسية وجعلت ضيق الصبر والاندفاع العصابي (اللذين يشكلان عرضين مهمين للميغلومنيا) قوة ضاربة في تصرفات هرتزل . وكما يحدث باستمرار لكثـــير مـــن ساسة العالم ، كانت الازمة التي هزت هرتزل ازمته الخاصة بالذات وليس ازمة الملايين المعذبة من اليهود . لقد اصبحت ايام الملك الذي أراد ان يسير على رأس قافلة اليهود الى وطنهم القومي اياما معدودة على الارض . وعليه فلم يكن هرتزل يحاول ، حسب رأينا ، المناورة وراء وزارة الخارجية البريطانية وانما وراء صفوف اليهود من اتباعه ، ولكن وزارة الخارجية وكوادر منظمته اضرمت النـــار في مركبته وتخلصت من احراجاته بانهاء حياته هما وكمدا .

وانشق اتباع مدرسته من مؤيدي يوغنـــدة عن المنظمة الصهيونية وأسسوا منظمتهم الخاصة واطلقوا على أنفسهم اسم الاقليميين كناية عن بحثهم عن أي اقليم مناسب خارج فلسطين . واستمر بعض هؤلاء بالبحث عبثا عن اقليم ومواجهة الخيبة دائما برفض الدول لهم ، بينما استمر اخرون بالضغط على الحكومة البريطانية بمواصلة العمل على مشروع يوغندة . وكان بين هؤلاء الامـــير غولدرايخ الذي استشهد بحجج مـــن التلمود في دعم قدسية مشروع يوغندة وكتب الى الحكومة البريطانية يحثها على المضي بعرضها دون ان يتلقى منها غير رسالـــة مؤدبة تذكره بأنها قد قدمت عرضهـــا لليهود ولكنهم مع الاسف رفضوه (!) ولم يبق لها سوى ان تعتبر الموضوع مغلوقا(٢٨) . وبهذا كان الصهاينـــة قد قاموا بأول خدمة مشينة قذرة لوزارة الخارجية البريطانية والاستعمار الغربي .

وعلى كل فان الادعاء بوجود تعلق عاطفي يهودي عام بفلسطين ومما لا يمكن فصمه او تحويله هو من الخطأ على درجة لا تقل بكثير عن الخطأ الاخر الذي قد يخرج اليه القارىء من هذا المقال عندما يتصور ان فلسطين لم تعن اي شيء لليهود بتاتا . اذا كان لا بد لنا من تقرير الحقيقة بشكلها الموضوعي فعلينا ان نقول ان قسما معينا مـــن اليهود كانوا يشعرون بعلاقة عاطفية نحو فلسطين قابلة للتأثير شمالا او يمينا حسب الموقف العالمي واتجاهات الدول الكبرى . وكان المعادون للسامية والاستعماريون يتحكمون في شؤون هذه الدول وغيرها من الدول ووجدوا ان من الانجع لهم ابعاد اليهود من اوربا وافريقيا وتوجيههم الى فلسطين . وقام زعماء الحركة الصهيونية بدور الادوات المطيعة في هـــذه السياسة العالمية الارجاء .

ولا ضير من الاعتراف في هذا الصدد بأن سياسات هرتزل الديناميكية قد جادت بأكملها على المدى البعيد بالنسبة للحركة الصهيونية . فبالرغم من فشل مشروع يوغنـــدة فان قصته قد ساهمت في نجاح الحركة ايما مساهمة . ومن ذلك انها قد ساعدت على تثقيف عدد من الساسة الانكليز باتجاه موال للقومية اليهودية . ونذكر منهم بهذه المناسبة لويد جورج الذي عمل كمستشار قانوني ومحام للمنظمة الصهيونية في مشروع يوغندة واصبح رئيسا للوزراء في الحرب العظمى عندما اصدرت حكومته وعد بلفور . ومنهم ايضا ارثر